الطفل المعجزة

من منا لم يطلق العنان لخياله وأخذ يتخيل مستقبل رضيعه؟ من منا لم يبحث في طفله عن موهبة ينميها أو هواية يتبناها أو تفوقًا يتباهى به؟ حتى الحضانات أصبحت تنتقي أسماءها لتداعب أحلام الأهل في التميز والتفوق والعبقرية والريادة والقيادة، والمدارس تنتقي أسماءها لتلعب على نفس الأوتار الحساسة، الكل في سباق محموم والضحية طفل! طفلي وطفلكم وجميع أطفال هذا الجيل الجديد! الهوس المرضي بالبطولات والجوائز والشهادات والابتكارات هو ما اجتمع عليه أمهات وآباء ما زالوا متعلقين بأحلامهم غير المحققة من طفولة لم ينتبه لها أحد!

قد يكون «آدم» محظوظًا لأنني لم أجرِبه خلف البطولات والجوائز، ولم أضعه تحت ضغط التفوق والتميز، بل إنني كثيرًا ما كنت ألح عليه ليترك نشاطًا ما، وكان يرفض ويشكوني للمعلمات والمدربين. كانت كل أحلامي أن يكون سعيدًا، طبيعيًّا وسعيدًا! كنت أتمنى أن يسير بطريقة طبيعية وأن يجري بطريقة طبيعية وأن يتحدث بطريقة طبيعية. على الرغم من بساطة متطلباتي، فإنها غير مشروعة!

نعم! ليس من حقي مقارنة «آدم» بالأطفال «الطبيعيين»! الحق، يوم توقفت عن مقارناتي الصامتة، أدركت تميزه واختلافه وجمال روحه وعقله! عندما أقبل يديه وأقول له إنه «هدية ربنا»، أعني كل حرف! لا يمنع إدراكي هذا من حدوث بعض الانتكاسات، لكنني أحاول وأجاهد للتغلب على مشاكلي أنا وإعاقاتي أنا! تتهافت الأمهات على المونتيسوري لأنهن يظننن أن نهج المونتيسوري يخلق الطفل مبدعًا ويضمن المستقبل الباهر. تتصفح أمهات المونتيسوري المواقع التي تشير إلى مشاهير العصر الذين ذهبوا إلى حضانات ومدارس المونتيسوري، وأصبح لهم شأن عظيم في بداية شبابهم. الحقيقة للأسف ليست كذلك!

تقول د. «ماريا مونتيسوري» أن نهجها لا يصنع عبقريًّا ولكنه يساعد الطفل على استغلال قدراته _أيًّا كانت_ على أكمل وجه.

بيئة المونتيسوري تشجع الطفل على الاستكشاف، ومن خلال استخدام يديه في تجاربه الصغيرة، تتسع مداركه عن مثيله المربوط في كرسي أو المحبوس في السرير ذي القضبان الخشبية. يدرك الطفل حقائق كثيرة في سنواته الثلاث الأولى من خلال حواسه، ويختزن عقله كل المعلومات التي امتصها حتى يحين وقت دراسة مواد بعينها، مثل اللغة والرياضيات والجغرافيا والتاريخ وعلم النبات وعلم الحيوان كمثال. نجد الطفل صاحب التجارب الحياتية الغنية أكثر تفاعلًا مع الكتب والدروس.

أما بالنسبة لذوي الاحتياجات الخاصة من الأطفال، فيساعدهم نهج المونتيسوري على متابعة دروسهم وتنمية مهاراتهم باستخدام أكبر قدر من الحواس، وقد تطرقت للحديث في هذا الموضوع كثيرًا على صفحات هذا الكتاب.

تقول د. «ماريا مونتيسوري» أن نهجها يساعد الطفل على تحقيق ذاته، وقد لا يكون مقدرًا له أن يصبح عالمًا أو مبتكرًا أو فنانًا، وقد يكون قدره أن يكون مجرد رجل عادي، رجل عامل! نهج المونتيسوري لن يصنع من طفلكم معجزة، ولكنه بالتأكيد سوف يفسح المجال للمعجزة لتتحقق.

ما بين التعليم النظامي والتدريبات الرياضية والأنشطة الفنية ودورات تنمية المهارات ضاعت الطفولة وأصبحت الأمومة مزيجًا من المنافسة و«النفسنة» وسلسلة من المقارنات وأعباء نفسية ومادية.

أصعب ما في تجربة الأمومة هو حب طفلنا الذي رزقنا به وليس الطفل الذي تمنيناه أو تخيلناه! المحظوظون فقط يجدون في الطفل معلمًا وفي الطفولة دراسة، فدعوا طفلكم يعلمكم كل ما تحتاجون أن تعرفوه عن أنفسكم وعن متطلبات الأمومة والأبوة وعن السعادة الحقيقة!

أنا محظوظة!

مع انتهاء فصل الشتاء، يأتي المد والمدد. تكتسي شجرتي العارية بأوراق خضراء جديدة وتزهر براعم الحب من جديد في قلبي. أشعر بأشعة الشمس تتسلل إلى روحي وتضمد ما فعله الشتاء بي. أعود لنفس اللحظة أثناء حملي، أبتسم نفس الابتسامة التي كانت تجد طريقها إلى وجهي وأنا أتحسس جنيني في رحمي، وأبدأ في غناء أغنيتي و«آدم»:

«وبتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، بتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، ده حبك يا حبيبي بالعالم وإللي فيه.

وبتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، بتسأل يا حبيبي بحبك أد إيه، ده حبك يا حبيبي بالعالم وإللي فيه

بالشمس والقمر، والنجمة والسهر، والنسمة والسفر، بالبحر والشجر

بالشمس والقمر، والنجمة والسهر، والنسمة والسفر، بالبحر والشجر

دا حلم أنا عايشة بيه»

يأخذ «آدم» يدي ويقبلها. يسألني عن مدى حبي له، فأقول له إنني أحببته قبل أن أراه.

«بحبك قد الحاجات إللي نعرفها والحاجات إللي ما نعرفهاش، قد الحاجات إللي شفناها وإللي ما شفناهاش، قد الحاجات إللي أكلناها وإللي ما أكلناهاش».